11

وصية العلم

نص الوصية

عن قيس بن كثير قال: قَدِمَ رجلٌ من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشقَ فقال: ما أَقْدَمَكَ يا أخي؟ فقال: حديثٌ بَلَغَني أنك تحدِّثُهُ عن رسول اللهِ ﷺ. قال: أَمَا جئتَ لحاجةٍ؟ قال: لا. قال: أَمَا قدمتَ لتجارةٍ؟ قال: لا. قال: ما جئتَ إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«مَنْ سَلَكَ طريقاً يبتغي فيه علماً سَلَكَ اللهُ له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكةَ لتضع أجنحتَها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له مَنْ في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في الماء. وفضلُ العالم على العابدِ كفضل القمرِ على سائر الكواكب. إن العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء. إن الأنبياءَ لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً. إنما وَرَّثوا العلم، فمن أَخَذَ به أَخَذَ بحظٍّ وافرٍ»**[1].

ما يُفْهَمُ من الوصية

أختي المسلمة، هذه وصية عظيمة تحضُّنا جميعاً على طلب العلم ذكوراً وإناثاً، وهذا العلم الذي تحضُّنا عليه هو العلم النافع عند الله الذي هو علم الدين بما فيه من فروع تتعلق بالكتاب الكريم والسنة المطهرة أصلاً، ثم سائر العلوم من العلوم الدنيوية التي تنفع المسلمين.

والعلم للفتاة مطلوب شرعاً، ومن الجهل البالغ أن تظن الفتاة المسلمة أن العلم غير مطلوب منها، والعلم منه ما هو فرض واجب على الجميع،

---

(1) رواه الترمذي في سننه برقم (2682). وهو صحيح.

وهذا هو العلم الذي يتعلق بمعرفة أحكام العبادات وما يتعلق بالأوامر الشرعية التي تلزمنا في حياتنا العملية، وهي أمور مثل أحكام الصلاة والصوم وبعض أحكام الزكاة الواجبة كزكاة الفطر، وإذا ما مارس الإنسان المسلم حرفة أو صناعة فعليه أيضاً واجب تعلم أحكام تلك الحرفة مثل كيفية عقد العقود وكيفية البيع والربح وغير ذلك مما يتعلق بصناعته.

وأيضاً فإن الفتاة التي تبيع أو تشتري ما تعمله بيدها وما تبيعه للناس فهي مُلْزَمَةٌ وواجب عليها أن تتعلم الأحكام الخاصة بعملها، وكذلك عليها قبل كل شيء أن تتعلم أحكام الصلوات والطهارات والنجاسات وما يتعلق بشؤون حياتها اليومية لتعبد الله على نحو صحيح، فالعلم هو الذي يجلب تقوى الله إلى قلب العباد.

وهناك علوم نافعة مطلوبة للمسلمين، فبعضها يفضَّل أن تقوم الفتيات بممارسته بعد تعلمها له؛ فمن ذلك طب التوليد والطب النسائي عموماً، فالأفضل أن تشتغل النساء بهذا الفرع من الطب، ولهن أجر وثواب عند الله.

وفي هذه الوصية من الفوائد ما يلي:

1- العلم طريق إلى الجنة

أختي المسلمة، إن الطريق إلى العلم طريق يوصل إلى الجنة، والعلم الشرعي هو على رأس تلك العلوم، وكل علم يؤدي إلى نفع المسلمين وتقديم الخير لهم هو طريق يؤدي إلى الجنة. وهذا ما تحدثنا به هذه الوصية غير أن الذي يجب أن تضعه كل فتاة في حسابها هنا أن العلم له ضريبتان عند الله لا بد من أن يدفعهما الإنسان ليكون له هذا الأجر والثواب العظيم: إحداهما نفسية، والأخرى بدنية.

فأما النفسية فهي ألا يتعالى الإنسان على الآخرين بالعلم، فهذا هو من التكبر الذي يدخل النار، فالمسلم لا يتكبر ولا يطلب العلم لأسباب دنيوية، ولذلك قال النبي ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذَرّةٍ من كِبْرٍ»**، فلما سُئِلَ النبي ﷺ قال: **«الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْصُ الناسِ»**؛ وغمص الناس يعني ازدراءهم كما يعني احتقارهم بإظهار التعالي عليهم والابتعاد من مصاحبتهم واللقاء بهم بسبب شعور الشخص أنه أعلى رتبة من الناس.

وأيضاً قال النبي ﷺ: **«مَنْ يُرِدِ الله به خيراً يُفَقِّهه في الدين»**، وقال: **«لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحق، ورجُلٌ آتاهُ اللهُ حِكْمَةً فهو يقضي بها ويعلّمها»**. فالحكمة هي العلم النبوي من السنة النبوية، وهي ما يدخله الحسد، فإذا أراد الله الخير بالعبد أعطاه علماً نافعاً بحيث يسلّطه على الخير لا على الشر، ويعمل بهذا العلم، فكيف يتباهى الإنسان المسلم على الآخرين ولا يتواضع لله أمام الناس؟ هذا أمر دالٌّ على مرض في النفس والعياذ بالله، ومثل هذا الشخص ما يلبث أن يفقد علمه وفهمه وقدرته على الحق مهما نظر بعض الناس إليه على أنه عالم، فهو لن يكون عالماً حقاً بكمال العلم وهو بهذه النفس.

أختي المسلمة، إن طريق الجنة هو بالخلق القويم الذي يرتبط بفقه الإنسان، فإذا ما كنتِ تتعلمين الدين لتعلميه الناس فاحذري التكبر والتعالي على الآخرين، فإن الذي أعطاك العلم قادر على سلبه منك، وإن حِفْظَ الإنسان ونسيانه ربما يرتبط بالخير يعمله أو بالشر يعمله، فينسى الإنسان المسألة بسبب خطيئته في التعالي على الناس، وهنا لا بد أن يراجع حسابه وإلا فإن الله له بالمرصاد.

وقد قال النبي ﷺ: **«خيرُكُم أحاسنُكُم أخلاقاً إذا فقُهوا»**؛ فجعل خير المسلمين من المسلمين من كان يجمع إلى فقهه وعلمه حُسْنَ الخلق. وقال

النبيﷺ: **«مَنْ تعلَّم علماً مما يُبْتَغى به وجهُ الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا لم يَجِدْ عَرْفَ الجنة يوم القيامة»**[1]؛ فهذا هو نصيب من يطلب العلم لغير مرضاة الله، وخصوصاً العلم الشرعي.

وكذلك قال النبي ﷺ: **«لا تَعَلَّموا العِلْمَ لتُبَاهوا به العلماءَ، ولا تُماروا به السفهاءَ، ولا تَخَيَّروا به المجالِسَ، فمن فَعَلَ ذلك فالنارَ النارَ»**[2]؛ فالعلم لتعليم الناس لوجه الله لا لأي غرض دنيوي آخر، ولا يجوز في أي علم أن يطلبه الإنسان إلا لوجه الله، فلا يطلبه لغاية دنيوية، ولا يذهب إلى مجالس الكبار والأغنياء لأجل أن ينال غاية دنيوية، وكذلك فإن كثيراً من النساء اللاتي يتعلمن يسارعن إلى الالتقاء بنساء من طبقة مترفة يجلسن بينهن ليتصدرن ولينلن المديح والثناء، بظهرن أنفسهن أنهن هن العالمات فحسب، وهذا الفعل ليس له جزاء إلا النار.

وأما الضريبة البدنية فهي أن يعمل الإنسان بما تعلم، وقبل أن يعلّم ا بن لا بد أن يعمل بالعلم الذي معه، وإلا فكيف يأمر الناس بالمعروف وينسى نفسه؟ هذا جاء فيه وعيدٌ شديدٌ، فالعالم من أول من يحاسب يوم القيامة على ما عمل، والعلم حجة عليه يوم القيامة.

2- فضيلة العالم على العابد

أختي المسلمة، تذكر الوصية أن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ليلة البدر، فالعابد مهما كان حاله من العبادة الكثيرة الزائدة إلا أنه محتاج إلى علم العالم، وهو بعبادته لن يبلغ مرتبة العالم، وقد

---

(1) عَرْف الجنة: رائحتها الطيبة. وعرضاً من الدنيا: أي شيئاً مما يكون من أمور الدنيا، يعني لغاية دنيوية لا أخروية.

(2) لا تماروا: لا تجادلوا. لا تخيروا به المجالس: أي لا تبحثوا عن تصدر المجالس بسبب رغبة الناس فيما لديكم من العلم وخصوصاً الأغنياء.

قال النبي ﷺ في حديث آخر: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»**؛ يعني على أقلكم منزلة بين الناس في عملهم.

وقد قال النبي ﷺ أيضاً: **«فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ»**؛ وهذا لأن الفقيه لا يقع في حبائل الشيطان ومصايده، فهو يستغفر الله من الذنوب بعلمه، ويعلم تماماً ماذا يصنع وكيف يقوم بالطاعة والعبادة على الوجه الصحيح، وأما العابد فربما لا يعلم في بعض المسائل ما يجعله يعبد الله بشكل صحيح، فيخطئ ولا يدركه الثواب ولا يصل إليه بعمله ذلك. إن نفع العلم يتعدى إلى الخلق كلهم، وفيه إحياء الدين وهو بعد النبوة في المنزلة والدرجة.

3- وراثة العلماء للأنبياء

ومن ثم قال النبي ﷺ في هذه الوصية ما قال عن وراثة العلماء للأنبياء في العلم، لأنهم يبلّغون للناس كلام الأنبياء ويشرحونه ويفسرونه، والنبي ﷺ بُعِثَ معلّماً كما قال، وقد مرَّ مرةً على مجلس فيه عبادة وذكر ودعاء، ومجلس فقه وعلم وتعلم، فجلس إلى أهل الفقه لا إلى أهل الذكر وقال في هذين المجلسين: **«كِلاَ المجلسين على خيرٍ وأحدُهما أفضلُ من صاحبه: أمَّا هؤلاء فَيَدْعُون اللهَ ويَرْغَبون إليه، وأما هؤلاء فيتعلّمون الفقهَ ويعلّمون الجاهلَ، فهؤلاء أفضلُ، وإنما بُعِثْتُ معلّماً»**.

أختي المسلمة، لقد اشتغلت العلم الشرعي على مدى الزمان فتيات أصبحن أمهات وهن يَرْوِيْنَ العلمَ النبوي ويفقّهن الناس في حديث النبي ﷺ، وكتب علم الحديث مليئة بأمثال تلك النسوة اللائي كان يروي عنهن الرجال فيعطونهن "إجازات" في العلم؛ وهي شهادات خاصة برواية العلم النبوي عنهن، أليس فيما ذكر النبي ﷺ في هذه الوصية دافعاً لك كي تحرصي على

طلب العلم الذي ينال به صاحبه الأجر عند الله والثواب والمغفرة؟ نعم إنه حظ وافر كثير: هذا العلمُ النبويُّ لو أنك أخذت به وتعلّمت وعلّمت به.

4- استغفار الجميع لطالب العلم

إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم كما قال النبي ﷺ؛ وما ذلك إلا رضاءً لطالب العلم؛ أي أنها تكفُّ عن الطيران وتنزل إلى مجالس الذكر التي فيها طلاب العلم، وهذا أفضل التفاسير لهذه العبارة؛ فقد ورد في حديث نبوي آخر: **«إن الملائكة يطوفون في الطُّرُق يلتمسون أهلَ الذكر؛ فإن وجدوا قوماً يذكرون اللهَ تنادَوا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم، فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»**.

ثم إن الملائكة من أهل السماوات يستغفرون لطلبة العلم وكذلك أهل الأرض وحتى الحيتان في الماء؛ فأما استغفار الملائكة فهو واضح، وأما استغفار أهل الأرض فهذا لأنهم كثيراً ما يدْعون لطلبة العلم، وكلما رأوا طالب علم أو عالماً فهم يدعون لهما، وهذا نوع من الاستغفار لهما، كما أن هناك أدعية مباشرة يدعو بها الناس لطلبة العلم، وهم يدعون أيضاً للذين علّموهم في أثناء حياتهم وبعد موتهم، وأما الحيتان في الماء فقد قال العلماء: إن الله ألهمها أن تستغفر لطالب العلم وللعالم وأن تدعو لهما؛ والاستغفار هو الدعاء هنا، وقد جاء تفسير هذا في نص آخر بلفظ: **«وإن السماوات والأرض والحوت في الماء لتدعو له»** يعني: لطالب العلم أو للعالم.